

صورة الملك العادل " نور الدين زنكي "

في أدب الحروب الصليبية

الدكتور : بن عيسى باطاهر
مدرس بكلية التربية - ذمار

مقدمة :

تتناول هذه الدراسة شخصية الملك الأيوبي " نور الدين زنكي " الملقب " بالملك العادل " كما صورها الأدب في عصر الحروب الصليبية وقد اخذت هذه الشخصية البارزة في التاريخ الإسلامي لمعرفة ما إذا كانت صورتها في الأدب تماثل تلك الصورة التي قدمتها لنا كتب التاريخ .

والأدب إلى جانب كونه فناً يعبر عن الحياة والقيم والتجارب الإنسانية فهو أيضاً مصدر مهم يمكن أن يستعين به الدارسون لمعرفة جوانب مهمة من حياة الأشخاص والمجتمعات عبر صفحات التاريخ المختلفة .

وإذا علمنا الدور الكبير الذي كان للأدب في عهد الأيوبيين من حيث تسجيله المباشر للأحداث ، ومساهمته الفعلية في الصراع الفكري والحضاري وتعبيره المستفيض عن آلام الأمة وآمالها ، أمكننا الدخول إلى أفق فسيح قد يمدنا بمعلومات غنية تثري أو تعاضد تلك الاستفادة من كتب التاريخ عن هذه الشخصية الفريدة التي شغلت اهتمام المؤرخين قديماً وحديثاً .

وقد استقيت المادة الأدبية في هذه الدراسة من دواوين الشعر الخاصة ورجعت إلى الشعراء الذين اتصلوا بنور الدين زنكي ، ولازموه وعاشروه ، رغبة مني في تحري الصدق والاخلاص ، وكان من أبرز هؤلاء الشعراء " ابن منير الطرابلسي " و " ابن القيسراني " و " العماد الأصفهاني " و " أسامة ابن منقذ " ، وقد كان اعتمادي على المادة الشعرية لكثرتها وتنوعها ، أما النثر فلم اعتمد عليه لكونه يشكل جزءاً من المادة التاريخية .

وقد تناولت في هذه الدراسة الباحث الآتية :

أولاً : نور الدين في مصادر التاريخ .

ثانياً : نور الدين في ضيافة أدباء عصره .
ثالثاً : أبرز معالم شخصية نور الدين في أدب الحروب الصليبية .
واختتمت الدراسة بخلاصة لأهم النتائج التي توصلت إليها .

(١) نور الدين في مصادر التاريخ :

رسمت المصادر التاريخية صورة متكاملة للجوانب لشخصية نور الدين زنكي، وقد بدا واضحاً أنّ هذا الرجل الذي ظهر في زمن الأزمات الصعبة ، والأوقات الحرجة التي مرت بها الأمة الإسلامية خلال فترة الهجمات الصليبية على بلاد الشام، هو الحاكم المسلم الذي طال انتظاره بعدما خابت الآمال في كثير من الحكام المتفاعسين عن الجهاد ، المتنافسين على الدنيا ، ومن الذين وصفهم ابن الأثير (٦٣٠هـ) بقوله: (كانوا كالجاهلية ، همّة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً)^(١).
وقد بدا - كذلك - أن نور الدين قد جدّد الصورة الطيبة للقائد المسلم المترسبة في أذهان المسلمين منذ أيام الرسول ﷺ، حتى إنه عُذِّ في زمرة الخلفاء الراشدين .

ولاشك أن نور الدين قد حقق أمل الأمة في العزّة والعدل ، والكرامة والتحرير، لما توفر فيه من صفات خلقية وخلقية ، وبما تهيأ له من حسن الإدارة والسياسة ، وبما عرف به من شجاعة وحزم ، وكلّ هذا جعل منه أنموذجاً للمثل العليا والقيم السامية ، يقول ابن الأثير (٦٣٠هـ) : (قد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز سيرة أحسن من سيرته ، ولا أكبر تحريماً منه للعدل وكانت ولادته سنة (٥١١هـ) ، وتوفي بدمشق سنة (٥٦٩هـ) ، وقد اتسع ملكه فشمّل الشام وديار الجزيرة ومصر ، وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن ، وأبلى في حروبه للفرنج ، وأسر بنفسه في بعض الغزوات بعض ملوكهم ، وكان يُعظّم الشريعة ويقف عند حدودها ، وأنشأ من المدارس والجوامع والطرق والجسور ودور المرضى والباثسين والخانات والحصون ما لم يسبق إلى مثله^(٢) .

وتحدّث أبو شامة المقدسي^(٣) (- ٦٦٥هـ) حديثاً مفصلاً عن نور الدين ودولته ، وعذّة قدوة لصلاح الدين الأيوبي فقال : (وجدتهما في المتأخرين كالعمرين - رضي الله عنهما - في المتقدمين^(٤)) قال : " الله درهما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة ، وهما حنفي وشافعي ، شفى الله بهما كلّ غيٍّ ، وظهرت

بهما من خالقهما العناية ، فتقاربا حتى في العمر ومدة الولاية) (٥) .
وينقل أبو شامة المقدسي (- ٦٦٥ هـ) عن العماد الأصفهاني الذي لازم نور الدين مدة من الزمان ، وكان كاتباً له وصفاً لمعالم شخصية هذا القائد فيقول : (كان ملك بلاد الشام ومالكها ، والذي بيده ممالكها ، الملك العادل نور الدين أعف الملوك وأتقاهم ، وأتقبتهم رأياً وأتقاهم ، وأعدتهم وأعبدهم ، وأزهدهم وأجهدهم ، وأظهرهم وأطهرهم وأقواهم وأقدرهم ، وأصلحهم عملاً ، وأنجمهم أملاً ، وأرجحهم رأياً ، وأوضحهم رأياً ، وأصدقهم قولاً ، وأقصدتهم طولاً ، وكان عصره فاضلاً ، ونصره واصلأً ، وحكمه عادلاً ، وفضله شاملاً ، وزمانه طيباً ، وإحسانه صيباً ، والقلوب بمهابته ومحبتة ممتلية ، والنفوس بعاطفته وعارفته متملية وأوامره ممثلة ، وجده منزّه عن الهزل ، ونوابه في أمن من العزل ودولته مأمولة مأمونة ، وروضته مصوبة مصونة ، والرياسة كاملة والسياسة شاملة ...) (٦) .
فهذه صورة عامة لشخصية نور الدين في أحد مصادر التاريخ ، ولا يتسع المقام للتفصيل في جزئياتها كلها ، لأن مجال البحث هو تناول هذه الشخصية في مصادر أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها وهي مصادر الأدب ، ويبقى أمامنا الآن الاستقراء والتحليل والبحث لمعرفة أهم معالم شخصية نور الدين زنكي .

(٢) نور الدين في ضيافة أدباء عصره :

يعد الأدب أحد الأسلحة التي وظفها نور الدين في جهاده ضد الصليبيين ، فقد اجتمع حوله عدد من الشعراء والكتاب الذين ساهموا في شحذ الهمم ، وتوجيه الطاقات ، وتوحيد الأفكار والمشاعر لتتجه كلها نحو الهدف الواحد ، وهو تحرير البلاد والمقدسات من هذا الكائن الغريب .

لقد كان هؤلاء الأدباء اللسان الناطق للصراع في تلك الفترة ، وعلى غرار ذلك ، كان أدبهم تسجيلاً لسلمات البطولة وأداة في خدمة الجهاد ومخلداً للمعارك ، وسجلاً للقضايا التي تتصل بحياة البطل ، ووثيقة قيمة لدراساتها ، ورسم لنا الأدباء في قصائدهم ومكاتباتهم صورة واضحة المعالم لشخصية نور الدين .

ومن أبرز هؤلاء الأدباء الذين اتصلوا بنور الدين ولازموه الشاعران (محمد بن نصر القيسراني) ، (وأحمد بن منير الطرابلسي) ، قال أبو شامة : (وقد مدح نور الدين بأشعار كثيرة ، وأوصافه فوق مامدح به وكان في أول دولته شاعر زمانه ، أبو

عبد الله محمد بن نصر بن صغير ، وأبو الحسين أحمد بن منير ، ولهما فيه أشعار فائقة^(٧).

ومن أكثر الأدباء ارتباطاً بنور الدين " العماد الأصفهاني " ، فقد مدحه بقصائد كثيرة ، ورثاه بعد موته ، وسجل مآثره في كتاباته النثرية ومن الشعراء الذين ارتبطوا بنور الدين الشاعر المجاهد " أسامة بن منقذ " وأبو المجد مسلم بن قسيم الحموي " ، و " ابن أسعد الموصللي " ، وقد مدحوه بقصائد كثيرة .

وكان لهذا الأدب الكثير الذي قيل في نور الدين حوافز كثيرة ، غير أن حافز التكسب لم يكن هو الحافز الرئيس ، ذلك أنه يمثل بالفعل إعجاباً صادقاً بشخصية الممدوح ، وقد استنتج الأستاذ الدكتور " محمود ابراهيم " في دراسته عن شعر ابن القيسراني ، أن هذا الشعر يمثل إعجاباً صادقاً بالبطل الاسلامي ، وأنه لا يترجم من مشاعر ابن القيسراني وحده ، بل عن مشاعر الجماعة الاسلامية^(٨).

ويمكننا بعد هذا كله أن ندخل ميدان هذا الأدب ونحن مطمئنون إلى قضية الصدق الفني فيه ، ويمكن اعتماده مصدراً لمعرفة معالم شخصية هذا الرجل المجاهد .

(٣) أبرز معالم شخصية نور الدين في أدب الحروب الصليبية :

(أ) الصفات الخَلْقِيَّة :

الصفات الخَلْقِيَّة تشكّل جانباً مهماً في شخصية الإنسان ، وبخاصة شخصية الحاكم الذي حددت الشريعة الاسلامية له شروطاً ومنها الصفات الخَلْقِيَّة كما هو مبين في كتب السياسة الشرعية ، غير أن التركيز على الجوانب النفسية والصفات الخَلْقِيَّة كان أكبر ، ذلك أن الأمة تحتاج إلى رجل مهياً نفسياً ومعنوياً لقيادتها ، وقد انعكست هذه المعاني على الأدب ، فحرص الشعراء على تصوير البطل المسلم من الناحيتين النفسية والخلقية معا ، فهو فضلاً عما يتصف به من سمات وفضائل معنوية ، إنسان جميل الطلعة ، مشرق الوجه^(٩) وقد رسم الأدباء صوراً جميلة لنور الدين ، فهو عند الشاعر ابن منير الطرابلسي كالبدر في إشراقه^(١٠) .

ماضراً هذا البدر وهو محلق
أن الكواكب في الدّرّاء ضرائه
وقال كذلك : ^(١١)

يا شمس لا كسف ولا تكذار
ولا خلّت من نورك الأنوار
البدر منقوص وأنت كامل
لك السرايا وله السرار

وقال أيضا (١٢) :

وَمُمَلِّكٌ فِي السَّرَجِ أَمَ مَلِكٌ سَطَّتْ لِبَهَائِهِ عَقْلٌ وَتَاهَ عَقْلٌ
وَبَرَزَتْ فِي لِبْسِ الْخِلَافَةِ كَالْهَلَا لَ جَلَالَةٍ فِي حُلِيِّ الدُّجَى التَّهْلِيلُ
ويبدو لنا أن هذه المعاني التقليدية التي تناوَلها " ابن منير " وغيره من الشعراء في
رسم الصفات الخَلقية قد مُزجت بعنصر آخر كان يتمتع به " نور الدين " وهو الهيبة
والجلال ، فهذا ابن القيسراني الذي لازم نور الدين مدة من الزمان يقول في
مدحه (١٣) :

وَجَمَالَ مَنْطِقٌ بِجَلَالِ وَكَمَالَ مُتَوَجِّعٍ بِيَهَاءِ

وقال أيضا (١٤) :

يَشِمُّ نُغُورَ الْمُرْنِ تَهْمِي كَانُهَا سَنَا بَشْرَ نَوْرِ الدِّينِ تَنْهَلُ سَحْبَهُ
إِذَا مَا سَمَا فِي سَهْمِ الْخُطْبِ وَجْهَهُ تَمَزَّقَ مِنْ بَدْرِ الدَّجْنَةِ حُجْبَهُ
ويتضح هذا الربط في قول ابن القيسراني (١٥) :

هَلْ وَجْهُهُ نَوْرِ الدِّينِ غَيْرِ سَنَا صَدَعَ الدُّجَى عَنْ خَجَلَةِ الْبَدْرِ
مَلِكٌ مَهَابَتُهُ طَلِيعَتُهُ أَبْدَأَ أَمَامَ جُيُوشِهِ تَسْرِي

ويمدحه العماد الأصفهاني قائلا (١٦) :

وَلَقَدْ رَأَى مَنْ يَعْصِيكَ أَحَقُّرٌ أَنْ يَرَى أَثَرَ الْعَبُوسِ بِوَجْهِكَ الْمُبْلَجِ

يتبين لنا من هذه النماذج أن صفات نور الدين الخَلقية التي رَدَّدها الشعراء في
قصائدهم هي في الغالب تلك التي تصف البطل بجمال الطلعة وبهاء الوجه وإشراقه ،
ثم جاء الربط بينها وبين صفة الهيبة والوقار ، وهي من الصفات المتداولة في الشعر
والنثر منذ القديم .

(ب) الصفات الخَلقية :

يرى ابن حزم (- ٤٥٦ هـ) - رحمه الله - أن أصول الفضائل ، ودعائم
الأخلاق التي تزكك عنها كل فضيلة أربعة العدل ، والفهم ، والنجدة (الشجاعة) ،
والجود (١٧) ، وهذه هي الأخلاق الأساسية في صورة البطل منذ القدم ، وإذا كان
ابن حزم لم يذكر خلق " التقوى " فذلك لأنه من البديهيات في المفهوم الإسلامي ،
يقول الأستاذ الدكتور " محمود إبراهيم " : " المتبع للتاريخ الإسلامي منذ نشأة
الإسلام وإلى أمد غير بعيد ، لا بد أن يلحظ أن شخصية القائد الصالح في المجتمع
الإسلامي لم تنسلخ يوماً عن شخصية الإنسان التقى " (١٨) .

وسنبدا بهذه الأخلاق التي حرص الشعراء والأدباء على تجسيدها في شخصية نور الدين ، ثم ننتقل إلى الصفات الأخرى .
(١) التقوى :

إن الدارس للأدب في هذه الفترة يلاحظ أن شخصية نور الدين ارتبطت بالقيم الإسلامية ، على عكس والده " عماد الدين زنكي " الذي عُرف بالشجاعة والاقدام ، وهذا ما جعل الشعراء يشيرون إلى هذا الخلق في أغلب الاحيان ، حتى إنهم صنفوه في رتبة النساك والعباد ، بل ومن الأبدال الكبار في الورع والتقوى ، والمتبع للأدب لا يجد في هذا أية مبالغة ، ذلك أن " نور الدين " اهتم بالشرعية اهتماما كثيراً ، وجعلها ممارسة تطبيقية في شؤون الحياة ، وتقيد هو نفسه بأحكامها ، وعُني بالتقرب إلى الله بالقول والعمل ، والشواهد الأدبية تبرز لنا هذا بصدق ، وسنذكر بعضاً منها وبخاصة عند الشعراء الذي لازموه وعاشروه وعرفوا سيرته .
فهذا " ابن منير " مثلاً يقول في مدحه (١٩) :

لسانُ بذكر الله يَكْسُو نَهَارَهُ بهاءٌ وحتى في الدُجَى ليس يرقد
وقال أيضاً (٢٠) :

وتمسك الإسلام منك بعروة الله أبرم حبلها فاستخصداً
أشقى فكنت شفاءً من حادثٍ غاداه عارضه مردى بالردا
كنت الصباح لليلة لما دجأ والغوث كف نظاه حين توقدا

وكان نور الدين متمسكاً بالعبادة كما ذكرت كتب التاريخ ، فقد كان يصلي بالليل وله فيه أوراد حسنة ، وكان ملازماً لصلاة الجماعة ، حتى قيل فيه (٢١) :

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن الخراب في الخراب .
والقرآن الكريم كان هو المرجع الذي يعود إليه قال ابن منير (٢٢) :

لا مُلْكَ إلا مُلْكُ محمود الذي تخد الكتابُ مظاهراً ووزيراً .
ووضع " ابن القيسراني " نور الدين في رتبة العباد والنساك حيث قال (٢٣) :

لك الساعي الغرُّ ياجامعاً من طرفيها بين أضدادها
يغشى الوغى أفرس فرسانها وفي التقى أزهْدُ زهادها
فأنت نسكاً غيثُ أبدالها وأنت فتكاً لئثُ آسادها
في أمة أنت حمى دينها حيناً وحيناً شمسُ عبادها

وكما هو ملاحظ فقد البسه ألقاب التصوف كالغوث ، والبذل ، والقطب وقال في مدحه أيضاً (٢٤) :

إن لا تكن أحدَ الأبدال في فلكِ التقوى فلا نتمارى أنك القطبُ
 فلو تناسبَ أفلاكُ السماء بها لكان بينكما من عفة نسبُ
 هذا وهل كان في الاسلام مكرمةً إلا شهدت وعباد الهوى غيبُ
 وهذا العماد الأصفهاني يتحدث عن صفاته ، ويجعله "كسلمان الفارسي" في
 التقوى قال (٢٥):

في بأس عمرو في بسالة حيدر في نطق مَسّ في تقى سلمان
 سير لو أن الوحي ينزل أنزلت في شأنها سورُ من القرآن

٢- العدل :

لقب " نور الدين " بالملك العادل لتحريره العدل ، وانصافه المظلوم وبنائه لدار
 العدل ، فكان يجلس بنفسه يسمع شكوى المظلومين وكان يتبع في عدله الشريعة
 الاسلامية . وقد برزت صفة العدل في أغلب النصوص الأدبية ، فوجد لقب "الملك
 العادل " يتردد كثيراً في الشعر ، وربط الشعراء بين عدله وقضايا أخرى تتعلق
 بوحدة الدولة ، فهذا العماد الأصفهاني يجعل عدله سبباً في جمع شمل المسلمين،
 قال (٢٦):

أضحى بعدلك شملُ الملك ملتماً وهل بعدلك شيء غير ملتئم
 بما من العدل والإحسان تنشره تخاف ربك وخوف المذنب الأثم
 وهذا " ابن القيسراني " يقارن بين عدله وجور غيره حيث يقول (٢٧):
 بدولتك الغراء أصبح ضدُّها بهيماً ولولا الحسن ما عرف القُبْحُ
 وكم من قريح القلب لو بات وارداً مواردُ هذا العدل مامسه قرْحُ
 وكان عدل "نورالدين" سبباً في حل المشكلات كلها ، وقال ابن القيسراني (٢٨):
 وأعاد نورالدين في مشكاته وأقام وزن العدل بالقسطاس
 فهو الخبير بكل داء معضلٍ يأسو جراح زماننا ويواسي

٣- الجود:

ومن أبرز الصفات وأكثرها وروداً في الشعر والنثر صفة الجود فقد قيل في
 جوده الكثير ، ومن ذلك ماقاله " ابن منير " في مدحه (٢٩) :

ملكٌ عندهُ المشاربُ تُستمرى
فلک الله من مُثمرِ بذرِهِ
وأخلاقُ الجُودِ تمرى فتقرى
وقال أيضاً^(٣٠):

وبذلٌ وعدلٌ أعرقا وتألقا
ويتحدثُ العمادُ الأصفهاني عن هذه الصفة وعن علاقته الخاصة بنور الدين فيقول^(٣١):

بالمُلك العادل محمود أنجزت الأيام موعودي
أسكنني الإقبال في ظله وعادَ حظي مورك العود
من لم يكن في ظله ساكناً فإنه ليس بمسعود
وكيف لا يسعد عبده له أقام بين العدل والجود
سفائن الآمال من جوده قد أستوت منا على الجودي
وتواتر هذا الخلق في الشعر تواتراً يجعل الدارس على يقين تام ، واقتناع كامل أن نورالدين كان كريماً بطبعه ، حريصاً على مصالح المسلمين.

٤ - العلم :

تذكر المصادر التاريخية أن نورالدين كان عالماً متفهماً وأنه كان يروي الحديث النبوي ويهتم بسنده ، وفي الآداب إشارات إلى علمه ، إذ إن صفات البطل المسلم حتى يتمكن من سياسة الرعية ، ومن الشعراء الذين ذكروا خلق العلم في مدائحهم العماد الصفهاني حيث قال^(٣٢) :

العزیز الإفضال والفضل والنا
وقال أيضاً^(٣٣):

أنت الذي دون الملوك وجدته
ومدحه ابن القيسراني بالفهم والبيان فيقول^(٣٤):

وأوضحت ما بين الفريقين سنة
وبينت ما قد كان من كان يبتغي
بها عرف المربوب من هو ربّه
دليلاً بأن الله من أنت حزبه

وعُرف نورالدين ببناء المدارس واهتمامه بالعلماء ، فهذا ابن منير يمدحه قائلاً^(٣٥):

سمكت المدارس فوق النجوم
وعاش الحنيفي والشافعي
فكم منجم تحتها قد نجم
بما شدت منها وكان رمم

٥ - الشجاعة:

وهي من الصفات التي تواترت في مصادر الأدب ، وقصائد الشعراء ، وقد كان نورالدين شجاعاً في مقارعة الأعداء ، وكان يباشر القتال بنفسه وكان يقول : (طالما تعرضت للشهادة فلم أرزقها)^(٣٦) ، وعرف نورالدين بهذا البيت^(٣٧) :

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن الخراب في الخراب
وقد نظم العماد الأصفهاني على لسانه^(٣٨) :

للفزو نشاطي وإليه طربي مالي في العيش غيره من أرب
بالجد والجهد نجح الطلب والراحة ستودعه في التعب
وتحدث " ابن منير " عن شجاعته في الحروب فقال^(٣٩) :

إن سارَ سارَ وقد تقدم جيشه رجفَ يقصع في اللهاد عارها
وقال أيضاً^(٤٠) :

كان فيهما ليث العرين حمى الأشبا ل منه غضبان كالنار ماقه
وشبه النبي يوم حنين إذ تلاقي أدواءهم درياقه
ويصف العماد شجاعته فيقول^(٤١) :

في بأس عمرو في بسالة حيدر في نطق قسّ في تقى سلمان
سيرٌ لو أن الوحي ينزل أنزلت في شأنها سور من القرآن

٦ - الاخلاص والصدق :

رأى الشعراء في نورالدين شخصية تلتزم بالدين ، وتضحى بكل شيء للذود عنه ، ورأوا فيه من الصدق والإخلاص في العمل ما لم يروا في غيره من الحكام ، فهذا العماد الأصفهاني يمدحه قائلاً^(٤٢) :

يافعّل الخير عن طبع بلا كلفٍ ومولي العرف عن خلقٍ بلا سأم
ويصفه ابن القيسراني بالإخلاص فيقول^(٤٣) :

قد بايع الإخلاص بيعه نصرةً ولكل هادى أمة أنصار
ويمدحه ابن اسعد الموصلّي بقوله^(٤٤) :

ملك بعيد من الادناس ذو كلفٍ بالصدق في القول والإخلاص في العمل

٧ - الهية والوقار:

كان نورالدين قوي الشخصية ، شجاعاً ذا هية ووقار ، وبرزت هذه الصفة

(الهيئة) في الشعر عند أغلب الشعراء الذين ارتبطوا به. يقول ابن منير^(٤٥):

ملأ البلاد مواهباً ومهابةً
ويقول ابن القيسراني^(٤٦):

ملك مهابته طليعته ابدأ أمام جيوشه تسري

ومن الشعراء الذين عبروا عن هذه الصفة احسن تعبيراً "ابن قسيم الحموي" حيث قال في مدحه^(٤٧):

تبدو الشجاعة من طلاقة وجهه كالرمح دلّ على المساواة لينه
ووراء يقظته أناة — جرب لله سطوة بأسه وسكونه

٨ - الأناة:

ومن صفات نور الدين التي وردت في الشعر الأناة، وهي من صفات المسلم التقي، كما أنها يجب ان تتوفر في الحاكم المسلم، وعن هذه الصفة قال اسامة بن منقذ^(٤٨):

ذو أناة يخالها الغرُّ إهما لا وفيها حنف الأعادي الخيق
وترتبط هذه الصفة بالرأي الحسن عند القائد وبخاصة في معاركه مع الأفرنج، يقول العماد الأصفهاني^(٤٩):

وهزمتهم بالرأي قبل لقائهم والرأي قبل شجاعة الشجعان

٩ - الحلم :

تناول الشعراء هذا الخلق في مدحهم لنور الدين، فهذا ابن القيسراني يقول في مدحه^(٥٠):

وسماح إذا استغاث به الآ مل ليّ نداءه قبل النداء
أيها الملك الذي ألزم النّاس س سلوى الخجة البيضاء
قد فضحت الملوك بالعدل لما سرت في الناس سيرة الخلفاء
وقال العماد في حلمه^(٥١):

وأراك تحلم حين تصبح ساخطاً ويكاد غيرك ساخطاً أن يسفها

١٠ - النسب:

تحدث الشعراء كثيراً عن نسب نور الدين، سيراً على التقليد القديم، وكانوا في

الغالب ينسبونه الى تلك الأسرة المجاهدة ، ويكثرون من ذكر أبيه عماد الدين ، ولم يكن لنسب نور الدين خاصية في تكوين شخصيته الجهادية الإسلامية إلا تلك الصفات التي ورثها عن أبيه ، مثل الشجاعة والهيبة وحسن السياسة ، و"ابن منير" هو أشهر الذين ركّزوا على هذا الجانب فقال مثلاً^(٥٢):

أبوك أبٌ لو كان كلهم أباً ورضوا وطء النجوم لقتلوا
وما مات حتى سد ثلثة ملكه بك الله ، ترمي مارماه فتصرد
ونبه الى هذه العربية فقال^(٥٣) :

تال أباك فهل سليمان يرى في الدست مهّد ملكه داود
جليّ وسدت مصلياً لا يرفع الـ معدوم مالم يشفع الموجود
لم يخترم جدّ غمّاك ولا أبٌ إنّ النباهة في الخليف خلود

ج- الصفات العامة المتعلقة بسياسة الدولة:

١- حسن السياسة:

استطاع نور الدين أن يدير شؤون دولته في ظروف صعبة وكان همه الأكبر هو الالتزام بالشريعة الإسلامية والتقيّد بأحكامها ، وقد انبنت سياسته كلها على هذا اهم ، قال العماد الأصفهاني^(٥٤) :

لم تدع في ابتغاء مصلحة الدين لنا باقياً ولن تدع
وقال أيضاً^(٥٥):

لله درك نور الدين من ملك عدل لحفظ أمور الدين ملتزم
أما ما فعله نور الدين فكثير ، لكنه فيما يبدو حرص على إقامة وحدة فكرية بين المسلمين لجمع الشمل ، وتوجه الطاقات كلها نحو الهدف الموحد ، ومن هنا جاء فأكثر من بناء المدارس ، وجلب العلماء ، وإقامة المساجد والبيمارستانات ، وبناء الأسوار وما إلى ذلك ، فعن بنائه للمدارس قال العماد الأصفهاني^(٥٦) :

همتك الربط والمدارس تبنيت ها ثواباً وتهدم البيعا .
وقال في رثائه^(٥٧) :

من للمساجد والمدارس بانياً لله طوعاً عن خلوص ضميره .
وبعض القصائد التي وصلتنا تصوّر شخصية نور الدين في سياسة الدولة وأعماله التي اهتم بها ، فمن ذلك قصيدة العماد في رثائه تلك التي مطلعها :

الدين في ظلم لغية نوره
ثم قال (٥٨):

من ينصر الإسلام في غزواته
من للفرنج ، من لأسر ملوكها
من للخطوب مذلاً لجماعها
من كاشف للمعضلات برأيه
من للكریم ومن لنعش عشا
من للبلاد ومن لنصر جيوشها
من للفتوح محاولاً أبكارها
من للعلی وعهودها ، من للندی
ماكنت أحسب نوردين محمد

فلقد أصيب برُكنه وظهيره
من للهدى يبغي فكاك أسيره
من للزمان سهلاً لوعوره
من مشرق من الداجيات بنوره
من للیتيم ، ومن لجبر كسيره
من للجهاد ومن لحفظ أموره
برواحه في غزوه وبُكوره
ووفوده ، من للحجّاء ووفوره
يخبو ، وليل الشراك في ديموره.

وقد اهتم نور الدين بالنواحي العمرانية اهتماماً كبيراً بعد الزلازل التي ضربت بلاد الشام في تلك الفترة ، وفي الشعر إشارات إلى ذلك ، قال بعض الشعراء (٥٩):

روعتنا زلازل " حادّات " بقضاء قضاه ربّ السّماء
هدّمت حصن شیرز وحماة أهلكت أهله بسوء القضاء
وبلاداً كثيرة وحصوناً وثغوراً موثقات البناء

(٢) السياسة الاقتصادية :

كان نور الدين أميناً على أموال الناس ، حريصاً على ممتلكات الأمة ، يقف عند حدود الشريعة في الضرائب والأموال ، وهذا ما جسده كتب الأدب وقصائد الشعراء ، فمن هذه السياسة الاقتصادية يقول ابن القيسراني (٦٠) :

ثنى يده عن الدنيا عفافاً ومال بها عن الأموال زهداً
رأى حظّ المكوس عن الرعايا فأهدر قبل ما أنشاه بعدد
ومدّ لها رواق العدل شريعاً وقد طوي الرواق ومن يهدد
وبات وعند باب العرض منها لدولته دعاء لا يبرّد
وعن هذه الضرائب التي أسقطها نور الدين قال العماد الأصفهاني (٦١):
أسقطت أقساط ما وجدت من الـ مكس بعدل ، والقاسط ارتدعا
لم تدع من ابتغاء مصلحة الدـ ين لنا باقياً ولن تدعنا

(٣) التخطيط الحربي :

أبرز الأدباء صفات نور الدين كقائد عسكري من الطراز الأول ، وصوّره صاحب شجاعة وبأس ، وفطنة وذكاء ، وتحدثوا عن تخطيطه للحروب فهذا ابن منير يمدحه قائلاً (٦٢) :

مظفرُ الراياتِ والرأي إذا ال حَرْبُ مَشَتْ تَعَثُرُ فِي خُطَامِهَا
ومدحه العمداد الأصفهاني بقصيدة رائعة مطلعها (٦٣) :

عُقِدَتْ بِنَصْرِكَ رَايَةُ الْإِيمَانِ وَبَدَتْ لِعَصْرِكَ آيَةُ الْإِحْسَانِ
ثم قال (٦٣) :

كَمْ مُصْنَعِبٍ عَسِيرِ الصَّقَادَةِ قُدَّتْهُ نَحْوُ الرَّدَى بِخَزَائِمِ الْخُلَانِ .
ثم قال (٦٤) :

وجلوت نور الدين ظلمة كفرهم لما صدعت بواضح البرهان
وهزمتهم بالرأي قبل لقائهم والرأي قبل شجاعة الشُّجْعَانِ

خاتمة :

بعد التسبع والاستقراء والتحليل لبعض النماذج الأدبية الشعرية التي قيلت في القرن السادس الهجري ، وكان محورها شخصية الملك العادل " نور الدين زنكي " تبين لنا أولاً : إن صورة هذا الرجل المسلم الذي ظهر في فترة حرجة من تاريخنا الإسلامي متكاملة الجوانب في صفاتها الخلقية والخلقية ، وفي صفاتها المتعلقة بسياسة الدولة وقيادة الأمة ، فهو رجل تجسدت فيه صفات وقيم الإسلام كما عهدنا عند الخلفاء الراشدين ولعلّ أهمّ عنصر أخذ منه نور الدين هذا الفضل هو التزامه بالشريعة الإسلامية واتخاذهُ للقرآن الكريم والسنة النبوية مرجعاً يعود إليه في كل أموره وحركاته .

ثانياً : إن القائد القدوة استطاع أن يوحد صفوف المسلمين ، ويوجه الطاقات نحو الجهاد ، وقد استجابت له النفوس ، وكثر الخير في دولته ، ورضي الناس بحكمه ، وأصبح مثالا وقدوة عند المسلمين ، ولما جاء " صلاح الدين الأيوبي " من بعده سار على نهجه حتى تم له النصر على الصليبيين بإذن الله ، وأعاد المسجد الأقصى إلى السيادة الإسلامية .

ثالثاً : لقد عاضد الأدب التاريخ في رسم صورة إيجابية متكاملة الجوانب لنور

الدين زنكي ، وإن كانت معالم هذه الشخصية قد بدت في النصوص الأدبية أكثر وضوحا وإشراقا ، لأن الشعراء في قصائدهم ومذائحهم يحرصون على رسم تلك الشخصية التي أعجبوا بها ، ويجعلون جلّ اهتمامهم التعبير الجميل عن الصفات الإيجابية التي تمتاز بها ، أما التاريخ فإن من طبيعته التركيز على الأحداث المهمة التي تحدث في المجتمع ويعيشها الأفراد ، ويكون لها أثر في حياتهم ومعاشهم ، ومن هنا لا ينبغي أبداً التهوين من قيمة الأدب ، بكونه وثيقة تاريخية يمكن الاستعانة بها في تجلية بعض الجوانب الغائبة في حياة الأفراد او المجتمعات .

الهوامش

- ١- انظر الروضتين في أخبار الدولتين " - أبو شامة المقدسي (٦٦٥ هـ) ج ١ ص ٦ ط دار الجليل بيروت .
- ٢- المصدر نفسه - ج ١ ص ٥٤ .
- ٣- يعد كتابه " الروضتين في أخبار الدولتين " أحد المصادر المهمة التي أرخت لهذه الفترة .
- ٤- الروضتين - ج ١ ص ٤ .
- ٥- المصدر نفسه - ج ١ ص ٤ .
- ٦- المصدر نفسه - ج ١ ص ١٠ .
- ٧- المصدر نفسه - ج ١ ص ٤٤ .
- ٨- صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني - محمود ابراهيم - ص ١٦٠ ط ١ مكتبة الأقصى عمان الأردن ١٩٧١ م .
- ٩- المرجع نفسه - ص ١٥٨ .
- ١٠- شعر ابن منير الطرابلسي - جمع وتحقيق سعود محمود جابر - ص ٥٣ ط ١ دار القلم ، الكويت ١٩٨٢ م .
- ١١- المصدر نفسه - ص ٩٠ ، ٩١ .
- ١٢- المصدر نفسه - ص ١٥٠ .
- ١٣- شعر ابن القيسراني - جمع عادل جابر محمد - ص ٥٨ ، ٥٩ (رسالة دكتوراه) مكتبة الجامعة الأردنية ، عمان الأردن .
- ١٤- المصدر نفسه ص ٧٣ .
- ١٥- المصدر نفسه ص ٢٢٩ .
- ١٦- ديوان العماد الأصفهاني - ص ١٠٢ - تحقيق ناظم رشيد - ط جامعة الموصل ١٩٨٣ م .
- ١٧- رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١ ص ٣٧٩ - تحقيق إحسان عباس - ط ١ المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨١ م .
- ١٨- صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني - ص ١٥٦ .
- ١٩- شعر ابن منير الطرابلسي - ص ٦١ .

- ٢٠- المصدر نفسه ص ٧٣ .
- ٢١- ذكره صاحب كتاب " الروضتين في أخبار الدولتين " (ج ١ ص ١٤) ولم ينسبه لأحد .
- ٢٢- شعر ابن منير الطرابلسي - ص ٩٩ .
- ٢٣- شعر ابن القيسراني - ص ١٨٩ .
- ٢٤- المصدر نفسه ص ٧٣ .
- ٢٥- ديوانه - ص ٤١٨ .
- ٢٦- المصدر نفسه - ص ٣٨٠ .
- ٢٧- شعر ابن القيسراني - ص ١٣٢ .
- ٢٨- المصدر نفسه - ص ٢٥٤ .
- ٢٩- شعر ابن منير الطرابلسي - ص ١٠١ .
- ٣٠- المصدر نفسه - ص ٦١ .
- ٣١- ديوانه - ص ١٣٨ .
- ٣٢- المصدر نفسه - ص ١٢٥ .
- ٣٣- المصدر نفسه - ص ٤١٧ .
- ٣٤- شعر ابن القيسراني - ص ٨٠ .
- ٣٥- شعر ابن منير الطرابلسي - ص ١٧٥ .
- ٣٦- الروضتين ج ١ ص ١٨ .
- ٣٧- المصدر نفسه - ج ١ - ص ١٤ .
- ٣٨- انظر جريدة القصر وجريدة العصر - العماد الأصفهاني - ج ٢ ص ١٠٢ .
تحقيق شكري فيصل - ط ١ المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٦٨ م .
- ٣٩- شعر ابن منير - ص ١٢٤ .
- ٤٠- المصدر نفسه - ص ١٤٥ .
- ٤١- ديوانه - ص ٤١٨ .
- ٤٢- المصدر نفسه - ص ٣٨٠ .
- ٤٣- شعر ابن القيسراني - ص ٢٠٠ .
- ٤٤- الروضتين - ج ١ - ص ٣٢١ .
- ٤٥- شعر ابن منير الطرابلسي - ص ١٢٣ .
- ٤٦- شعر ابن القيسراني - ص ٢٢٩ .

- ٤٧- الروضتين - ج ١ ص ٥٧ .
- ٤٨- ديوان أسامة ابن منقذ - ١٨٩ .
- ٤٩- ديوانه - ص ٤١٣ .
- ٥٠- شعر ابن القيسراني - ص ٥٨ ، ٥٩ .
- ٥١- الروضتين ج ١ - ص ٣٨١ .
- ٥٢- شعر ابن منير الطرابلسي ، ص ٦٢ .
- ٥٣- المصدر نفسه - ص ٦٤ .
- ٥٤- ديوانه - ص ٢٨٦ .
- ٥٥- المصدر نفسه - ص ٣٨١ - ٣٨٢ .
- ٥٦- المصدر نفسه - ص ٢٨٦ .
- ٥٧- المصدر نفسه - ص ٢١٣ .
- ٥٨- المصدر نفسه - ٢١٣ .
- ٥٩- الروضتين - ج ١ ص ٢٦٢ .
- ٦٠- شعر ابن القيسراني - ص ١٦٢ ، ١٦٣ .
- ٦١- ديوانه - ص ٢٨٦ .
- ٦٢- شعر ابن منير - ص ١٧٩ .
- ٦٣- ديوانه - ص ٤١٠ .
- ٦٤- المصدر نفسه - ص ٤١١ .
- ٦٥- المصدر نفسه - ص ٤١٣ .